خطبة ( سورة الفاتحة...فضائل ، وأسرار)

الحمد لله الذي أنزل السبع المثاني والقرآن العظيم على نبيه الهادي الأمين ، أحمده سبحانه جعل القرآن شفاء لعباده المؤمنين ، وأشهد أن لا إله إلا الله الإله الحق المبين .

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبدُه ورسولُه قائدُ الغُرِّ المحجلين ، خير من تدبر القرآن وآمن بالكتاب العزيز ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمّا بعد

فأوصيكم أيها النّاس ونفسي بتقوى الله ، فالبتقوى ينال العبدُ كل خير ، وبها ترتفع الدرجات وتُقال العثرات .

أيها المسلمون

سورةٌ نقرأها كل يوم في فريضة الصلاة سبعة عشر مرة وتسعاً وعشرين مرة مع سننِ الصلاةِ الراتبة ، بل ربما قرأها من وُفق لصلاة الليل - بأحد عشرة ركعة - أربعين مرةً في اليوم والليلة .

هذا العددُ الكبير الواجب لقراءتها كل يوم يجعل المؤمن يوقن أنّه حريٌ أن يتدبرها ويتأملها ويعرف معانيها وأسرارها .

سورة - ياعباد الله - ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، أقسم على هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء في سنن الترمذي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها "

هذه السورةُ العظيمةُ هي سورة الفاتحة .

وهي السورة التي تأتي في ترتيب القرآن أول سورة فيه .

لعظمتها يُنزلها الله نزولاً خاصاً من بين سائر السور - تنويهاً بفضلها ، وإشارة لعلو مكانتها ، ورفعة شأنها - فيُفتح لها باباً من السماء لم يُفتح من قبل نزولها ، وينزل بها ملَك إلى الأرض لم ينزل قط إلا يوم نزوله بها ، وفيها البشارة للنبي وأمته من بعده بإجابة من دعا بها ، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال :

" بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ مِنْ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ ، فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلا الْيَوْمَ فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلا أُعْطِيتَهُ " أخرجه مسلم .

هي أعظم سورة في القرآن بمنطوق حديث رسول الله ، جاء عند البخاري وأحمد وأبو داود وغيرُهم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي سعيد بن المعلي رضي الله عنه :

" لأعلمنّك سورة - هي أعظم السور في القرآن - قبل أن تخرج من المسجد....فلمّا همّ بالخروج قال له عليه الصلاة والسلام :

" الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته "

ولقد نوّه الله بفضلها وعلوِ مكانتها في كتابه وذلك بذكرها مفرَدة وعطف القرآن عليها ليظهر للعباد فضلها وجلالة قدرها ، فقال الله تعالى كما في خاتمة سورة الحْجِر :

" وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ" [ الحجر: 87]

والسبع المثاني هي سورة الفاتحة بإجماع المفسرين .

هذه الفضائل لها وغيرها الكثير - ياعباد الله - تجعل المرء يُعظّم هذه السورة ويعرف قدرها ومنزلتها ، وتُوجِب عليه التأمّل في معانيها ، ومعرفة مقاصدها ، ولماذا أوجب اللهُ قراءتها في كل ركعة .

إنّ التأمّل فيها - كما هو شفاءٌ للقلوب - فهو سبيل لأعظم أمر في الصلاة - وهو الخشوع فيها - لأنّ من عرف معناها لا شك أنّه سيبقى متأمّلاً لهذه المعاني أثناء تلاوتها ، فيكون قلبُه حاضراً فيها ، وفي هذا مكسب عظيم للمصلي مؤثَراً في قبول صلاته .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله :

تشتمل سورة الفاتحة على مجمل معاني القرآن في التوحيد ، والأحكام ، والجزاء ، وطرق بني آدم ، وغير ذلك ؛ ولذلك سمِّيت "أم القرآن" والمرجع للشيء يسمى "أُمّاً" . انتهى كلامه رحمه الله .

عباد الله

وهذه وقفات يسيرة مع هذه السورة العظيمة معينة على تدبر معانيها .

ابتدأت السورة - أيها المؤمنون - بقول الله تعالى:

" الحمد لله رب العالمين "

ومعنى الحمد : الثناء على الله تعالى وذلك لكماله الذاتي والفعلي ، فأنت عندما تحمد الله تحمده لكماله في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، فالله له الكمال المطلق من هذه الوجوه الثلاث ، وهذا الثناء لا بد وأن يكون مقترناً بالمحبة والتعظيم ، فثناء العبد على ربه بهذا الحمد جاء بعد معرفة العبد ربَه بكماله المطلق من جميع الوجوه مع محبته وتعظيمه ، ولهذا الحمد الأثر العظيم في قلب الحامد لربه سبحانه وتعالى .

وحمدُ العبدِ ربَه اعترافاً بنعم الله عليه التي أحاطت بها ولم تغب عنه طرفة عين ، فنعمٌ في نفسه ، ونعمٌ في ولده ، ونعمٌ في ماله ووطنه نعمٌ كلها تستوجب الحمد وتجعل اللسان يلهج بالحمد على الدوام .

يُحمد اللهَ - ياعباد الله - لأنّه ربُ العالمين والرب :

هو الخالق ، الملك ، المدبر .

فربكم ربٌ عظيمٌ جليلٌ خلق الخلائق كلِّهم وتكفّل في أرزاقهم ومعايشهم وحفظ أعمالهم .

ملِكٌ عظيم في ملكه وتدبيره وأفعاله .

قال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - :

عند قوله تعالى " رب العالمين "

وتربيته تعالى لخلقه نوعان : عامة وخاصة. فالعامة : هي خلقه للمخلوقين, ورزقهم, وهدايتهم لما فيه مصالحهم, التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه, فيربيهم بالإيمان, ويوفقهم له, ويكمله لهم, ويدفع عنهم الصوارف, والعوائق الحائلة بينهم وبينه, وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير, والعصمة عن كل شر. ولعل هذا [المعنى]هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فدل قوله { رَبِّ الْعَالَمِينَ } على انفراده بالخلق والتدبير, والنعم, وكمال غناه, وتمام فقر العالمين إليه, بكل وجه واعتبار .

ومن مقتضيات ربوبيته أمره ونهيه فهو الآمر الناهي سبحانه عز في علاه .

فتأمّل في هذه الآثار التي تُحدثها هذه المعرفة لقارئ الفاتحة وهو يقرأها كل ركعة من ركعات صلاته .

ثمّ يتلو القارئ " الرحمن الرحيم "

وهو أيضاً ثناء على الله تبارك تعالى بهذين الأسمين العظيمين تُجلّي سعة رحمة الله بالخلق ، فالمصلي بعد أن أثنى على ربه بأنّه رب العالمين كأنّ سائلاً يسأل :

" ما نوع هذه الربوبية ؟ هل هي ربوبية أخذ ، وانتقام ، أو ربوبية رحمة ، وإنعام ؟

فجاء الجواب بقوله تعالى: " الرحمن الرحيم "

فهي ربوبية رحمة وإنعام وتفضّل .

ورحمة الله عظيمة شاملة ولذا جاء في الحديث :

" جعل اللهُ الرحمةَ مائةَ جُزءٍ ، فَأمسَكَ عندهُ تِسعة وتسعينَ ، وَأَنزَلَ في الأرضِ جُزءاً واحداً ، فَمِن ذلكَ الجزءِ تَتَراحَمُ الخلائق ، حتى تَرْفَعَ الدابةُ حافِرَها عن ولدها خشيةَ أن تُصيبَه " رواه البخاري ومسلم .

فهذه الرحمة العظيمة التي اتصف الله بها تُملئ القلب تعظيماً ومحبةً لله الرحيم الرحمن سبحانه وتعالى .

ثم يقرأ القارئ : " مالك يوم الدين "

ويوم الدين هو يوم القيامة وهو يوم الجزاء والحساب الذي يجازي الله كلَّ عامل بعمله ، قال تعالى :

" يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ "

فالقارئ للفاتحة يستحضر يوم القيامة في كل ركعة لحاجة القلب لهذا التذكر ، فيعلم أنّ هناك يوماً يجمع الله في الخلائق ويجازيهم على أعمالهم فيؤثر هذا في قلبه فلا يخرج من كل صلاةٍ إلا وقد تذكّر ذلك اليوم العظيم .

وكلما قرأ القارئ هذه الآية جعلته - أيضاً - محاسبِاً لنفسه لأنّ يوم الدين هو يوم الجزاء والحساب فلا يعمل إلا صالحاً ، ويترك كل قبيح من الأعمال لخوفه من عواقبه .

ثم يأتي التالي للفاتحة على أعظم آية في كتاب الله وهي قوله تعالى " إياك نعبد وإياك نستعين "

وفيها الإخلاص لله في العبادة والبعد عن الشرك بجميع صنوفه وأشكاله ، والسلامة من الرياء ومراءات الخلق بهذه العبادة لأنّ الصلاة عبادة ظاهرة تحتاج إلى مجاهدة ومراقبة ، والعبد يكثر أجره كلما قوي إخلاصه في العبادة وابتعد عن الشرك ، ولذا جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" ألا أخبرُكم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال، قالوا بلى يا رسول الله، قال : الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيُزيّن صلاتَه ، لما يرى من نظر رجل " رواه أحمد

فتأتي آية " إياّك نعبد وإيّاك نستعين "

لتقطع حبائل الشرك من جذورة ، فالعبد إنّما يعبد رباً عظيماً جليلاً مستحقاً للعبد لما له من صفات الجلال والكمال ولإستحقاقه لهذه العبادة .

وبه يستعين أيضاً فلا قدرة للعبد على العبادة إن لم يعنه ربُه عليها ، ولذا كانت هذه الآية أعظم آية في كتاب الله ، وكان طلب المعونة على العبادة أعظم المطالب .

عباد الله

في هذه السورة يسأل العبدُ ربه أعظم سؤال وأهمّ مطلب وأحوج مسألة - وهي الهداية إلى الصراط المستقيم -

" اهدنا الصراط المستقيم "

هذه الهداية التي يحتاجها المسلم في كل لحظة من لحظات حياته ، وفي كل موقف من مواقفها ، يحتاجها لأنّه يرى كثرة الضالين والمنحرفين والمتنكبين الصراط المستقيم .

يحتاجها إلى معرفة تفاصيل الإيمان والتوفيق لها .

يحتاجها في فعله للأوامر التي أمره اللُه بها .

يحتاجها يوم تأتي الفتن وتضطرب الأمور ولا تتضح المسائل ولا تتبيّن الطرق .

نعم إنّها أنفع وأعظم الأدعية .

فأي نعمةٌ أعظم من نعمة الهداية !

وأي هبةٌ هي أجلّ من هبة الإنقاذ من طرق الغواية والضلال ، وسلوك طريق الإستقامة !

ثم تأتي الآية بعدها " صراط الذين أنعمت عليهم " لتوضح حقيقة هذه الهداية وهذه الإستقامة ، وهي الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الإسلام المشتمل على الإيمان بالنبوة والقرآن وتفصيلاتها .

هذه الهداية التي يسألها العبدُ ربَه في كل ركعة قد حُرمها خلقٌ عظيم وضلوا طريقها ، ولذا إذا قرأتَ هذه الآية ياعبدالله تذكر الأعداد الهائلة التي قد انحرفت فصارت حطباً لجهنم وبئس المصير .

في الأرض - أيها النّاس - أكثر من سبعة مليار إنسان ، المسلمون منه أقل من ثلاثة مليار والبقية كفّار ، فتذكر هذه النعمة وأنت تسأل ربك الهداية والثبات عليه حتى تلقاه .

تسأل ربك الهداية إلى الصراط المستقيم الذي أوله في الدنيا وآخره في جنّات النعيم .

وهذا الصراط المستقيم أهله هم الذين أنعم الله عليهم من أهل طاعته ، قال سبحانه قال: {وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً \* ذلك الفضل مِنَ الله وكفى بالله عَلِيماً}

وتأمّل كيف أطلق الإنعام - هنا - ليشمل كل إنعام يُنعم الله به على عبده ، وعلى حسب استقامتك واستجابتك لأمر تفوز بهذا الإنعام من الله تعالى .

" اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ "

إنّ هذه الآية العظيمة وهذا الدعاء العلي القدر ليوضح بجلاء أنّ الإنسان أحد ثلاث أصناف إما إن يكون من الذين أنعم الله عليهم - وهم أهل البصيرة الذين عرفوا الحق وعملوا به - وهو الفائزون .

أو أنه من الذين غضب الله عليهم - وهم الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به - وأولى النّاس دخولاً في هذا الوصف هم اليهود - لأنّهم عرفوا الحق ، وأشده وضوحاً نبوة نبينا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ولكنّهم لم يؤمنوا به بعد ان استبان الحق لهم ووضح وضوح الشمس في رابعة النهار ولذا غضب اللهُ عليه ولعنهم .

أو أنّه ممن عبد الله على ضلالة وغواية بدون علم وبصيرة كما فعل النصارى باتخاذهم عيسى وأمّه إلهين من دون الله فضلوا وأضلوا وضلوا عن سواء السبيل .

فهذه الأعداد الرهيبة للبشرية لا يخرجون عن أحد هؤلاء الأصناف إمّا مهتدٍ منعَّمٍ عليه ، أو مغضوب عليه ملعون ، أو منحرف ضال هالك .

بل حتى أفراد هذه الأمّة يدخل فيهم هذا التقسيم ، فمن اهتدى الإهتداء التام وسلك طريق أهل السنة والجماعة - وهو ماكان عليه رسول الله عليه الصلاة والسلام وأصحابُه - فهو صاحب النعمة التامة ، وأمّا من ترك العمل بالعلم فله نصيب من حال اليهود ، ومن عبد الله منهم على جهل فله نصيب من حال النصارى ، ولذا قال سفيان بن عيينه ( من فسد من علمائنا فله شبه من اليهود ، ومن فسد من عبّادنا فله سلف من النصارى )

فكم في هذاالدعاء من بصيرة للمعتبر ، وكم فيه من ذكرى للمتذكّر ، وبيان فضل للمهتدي .  
بارك الله لي ....

الخطبة الثانية

عباد الله إنّ معاني هذه السورة العظيمة لا يمكن الإحاطة بها في مقامٍ واحد فنحن بحاجة ماسة لمعرفة المزيد من معانيها لأنّ الله قد افترض قراءتها في كل ركعات الصلوات وماذاك إلا لأهمّيتها وشدة الحاجة إليها .

ومن عظمة القرآن وعجائبه أنّ الذي يتلوه لا يملُّ من تلاوتها ولا من ترداده ، بل كلما تلى الآيات ظهر له معنى آخر وكأنّه يقرأها لأول مرة .

وسورة الفاتحة - ياعباد الله - تجعل العبد يتعرّف على ربه وخالقه وسيده ومولاه .

فيرى رباً عظيماً كريماً جليلاً قديراً واسع الصفات ، كامل الأفعال ، جليل القدر .

ويرى رباً مالكاً للعباد نواصيهم بيده لا يخرج شيئاً عن أمره قد تكفّل بأرزاقهم وحاجياتهم ، وقد أحاط بهم علماً وقدرةً وتدبيراً .

يتدبر قارئ سورة الفاتحة " الرحمن الرحيم " فيرى في هذا الكون رحمة الله العامّة للخلائق كلِهم ، فهو يرزقهم مع كفرهم وعصيانهم وتمردهم وجبروتهم وظلمهم ، ويرى رحمة الله الخاصة بالمؤمنين بالهداية والتوفيق والرعاية والعناية والحفظ والإحاطة .

يتدبر قارئ سورة الفاتحة " مالك يوم الدين " فيظهر له ملك الله في ذلك اليوم العظيم بزوال ملك ملوك الأرض كلهم .

يتلو هذه الآية فيتذكر أحداثه العظام ومافيه من شدائد ، فيحمله هذا التذكر على الخوف والرجاء والمراقبة والطاعة لربه سبحانه وتعالى والهروب من معصيته .

يتدبر قارئ سورة الفاتحة " إيّاك نعبد وإيّاك نستعين " فيوقن باستحقاق الله للعبادة وحاجته - هو - لمعونة ربه عليها في كل حال من أحواله وعند كل أمر من أوامره .

يتدبر قارئ سورة الفاتحة " اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين " فيعترف أنّه بحاجة ماسة إلى الهداية بعدد أنفاسه لرؤيته للأعداد الهائلة من الضالين والمنحرفين عن الصراط المستقيم فهو يدعو بهذا الدعاء في ركعة لشدة اضطراره إليه .

فهل عرفنا لماذا كانت الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن ؟

ثم يختم القارئ هذه السورة العظيمة ب ( آمين ) ومعناها : اللهم استجب ، فينطقها وهو في حال اضطرارٍ وانكسار ورجاءٍ أن يستجيب له ، وفي الحديث :

" من وافق تأمينه تأمين الملآئكة غُفر له ماتقدم من ذنبه "

وقد كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُّ بالتأمين ، فيستحب رفع الصوت فيها ، وأن يوافق تأمينك تأمين الإمام لأنّه يوافق تأمين الملآئكة .

اللهم فقهنا في كتابك وزدنا بصيرة به .

صلوا على البشير النذير..